كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة الثانية ليسانس، دراسات سينمائية/ السداسي الثالث

مقياس: نظرية السينما

المحاضرة رقم 02 بعنوان:

" السينما كمجال ومقاربة للتفكير"

مثلما يمكن اعتبار لويس لوميير وجورج مليس من مؤسسي التقاليد الواقعية والانطباعية في السينما كذلك قام هذان السينمائيان بصورة غير مباشرة بإلهام أكبر مدرستين للنظرية الفيلمية. تتجه النظرية الواقعية للفيلم إلى تأكيد الجوانب التسجيلية لفن الفلم، تقيم الأفلام بالدرجة الأولى من خلال الدقة التي تعكس بها الحقيقة الخارجية، من الناحية الطرازية يفضل الواقعيون الأفلام ذات التقنيات غير مرئية مع تأكيد على الأشكال المفتوحة والمؤثرات الفنية المخففة، فأغلب الواقعيين يؤكد قرابة السينما للتصوير الفوتوغرافي ومع بعض الوجوه للأدب والدراما.

تميل النظريات الانطباعية إلى التركيز على الجوانب الشكلية في السينما، إذ ترى أن الحقيقة الخارجية ليست بالضرورة الأساس في تقييم الفيلم، بل يُقاس العمل بمدى أسلوبه في توجيه الرؤية الفنية. وعلى النقيض من ذلك، تؤكد النظريات الواقعية على مضمون ما يُنقل، بينما تهتم الانطباعية بكيفية نقل الأفكار والمشاعر. وبعبارة أخرى، ينحاز الواقعيون إلى مادة الموضوع، في حين ينشغل الانطباعيون بالتقنيات.

يميل المنظرون الانطباعيون إلى تفضيل الأفلام ذات "الشكل المغلق"، حيث يظهر تدخل الفنان بوضوح، ويؤكد بعضهم صلة الفيلم بالفنون الأكثر تجريدا ولا قصصية، مثل الرسم والموسيقى والرقص.

مع ذلك، تبقى هذه التوجهات عامة وليست حقائق مطلقة. ففي الواقع، يعترف كل من النقاد الواقعيين والانطباعيين بأن هذه الفروق قد تصبح سطحية وغير ذات جدوى. فالواقعي أندريه بازان، والشكلاني روبن وود، لم يميزا بدقة بين الشكل والمضمون، لإدراكهما أن المصطلحين في النهاية وجهان لشيء واحد.

إضافة إلى ذلك، فإن الناقد السينمائي الذكي يوظّف أي نظرية يجدها أكثر قدرة على تفسير الفيلم بعمق وتأثير. أما النقاشات الإيديولوجية حول بعض الأفلام فتبدو غالبًا قسرية ودعائية، ولا ترتبط جوهريا بالموضوع. وباختصار، فإن قيمة النظرية السينمائية تقاس بمدى نفعها، فإذا عجزت عن ذلك، وجب إهمالها والبحث عن بديل أكثر جدوى.

يُمكن النظر إلى التفكير السينمائي باعتباره مجالا تتقاطع فيه مقاربتان أساسيتان: الأولى واقعية تجسدت عند الأخوين لوميير، حيث تُوظف الكاميرا كأداة لتسجيل العالم كما هو، فتُصبح السينما مرآة للحياة ومصدراً للتوثيق والفهم الموضوعي؛ والثانية انطباعية مثلما جسّدها جورج مليس، الذي حوّل الفيلم إلى مختبر للخيال والتقنيات، فبرزت السينما بوصفها فنا يعيد تشكيل الواقع ويبتكر عوالم مغايرة تُثير الانفعالات والأفكار. ومن هذا التفاعل بين الواقعية والانطباعية يتضح أن السينما ليست مجرد انعكاس للواقع ولا مجرد صناعة للخيال، بل فضاء للتفكير المركب، يزاوج بين التوثيق والإبداع، وبين المضمون والشكل، مما يجعلها حقلا خصبا للنظرية والفن معا.

وبالتالي، ينظر إلى لويس لوميير من قبل العديد من مؤرخي السينما بوصفه الأب الروحي للواقعية السينمائية، من خلال تلك الأفلام المبكرة التي قدّمت الحياة اليومية بموضوعية كاميرا تكاد تخلو من أي تدخل إخراجي، وبحياد بصري جعل منها نموذجا للمباشرة، كما سيتوقف عندها لاحقا نقاد كبار أمثال

زيغموند كراكاور، وأندريه بازان، ودزيغا فيرتوف .فقد انصبت موضوعاته على تصوير مشاهد عادية في ظاهرها لكنها غنية في دلالتها: حركات القطارات، خروج العمّال من المعمل بعد يوم عمل طويل، أو حتى تصوير الطبيعة في حركتها الدقيقة، كأوراق الأشجار المترنحة بفعل الهواء أو انكسار الأمواج على الشاطئ. وقد أتاح هذا التوجه إمكانية مشاهدة تفاصيل التعبير الإنساني واللحظة الواقعية بدرجة لم يكن المسرح قادرًا على بلوغها آنذاك.

وعلى النحو ذلك، رفض لوميير بوعي اللجوء إلى أدوات المسرح، فلم يستعن بممثلين محترفين، ولم يعتمد إخراجا مُصطنعا، بل جعل من أقاربه ومستخدميه وأصدقائه ممثلين عفويين أمام الكاميرا. وهكذا تحولت السينما منذ بداياتها على يديه إلى أداة رصد للحياة ذاتها، مُتحرّرة من قيود التمثيل المسرحي وهيمنته. هذه القدرة على استنطاق الواقع بتفاصيله اليومية البسيطة مثّلت نقطة التحول الأساسية التي ميّزت السينما عن المسرح، وأرست الأسس النظرية التي سيبني عليها المنظّرون السينمائيون الكبار لاحقا في مقارباتهم للفيلم الواقعي.

وعليه، تهدف الواقعية من خلال نظرية السينما، إلى:

1- أي فيلم يستطيع أن يمثل الواقع بأمانة ولكنه لا يفعل ذلك بواسطة خصائصه المرئية والصوتية فحسب، إن قوى الفيلم المؤثرة تفعل فعلها هي الأخرى.

2- لو أخذت العناصر المرئية والصوت وحدها، فإن الأفلام التي تمثل الواقع لا يمكن أيضا أن تصبح فنا، ولكن إذا جُندت القدرات المؤثرة للفيلم، فإنه يمكن للفن وتصوير الواقع أن يتواجدا معا.

3- رغم أن الفيلم السينمائي يستطيع أن يمثل الواقع، فليس ثمة سبب جمالي يبرر لماذا يجب أن يفعل ذلك، وفي حين أن مشاهد المونتاج عند إيزنشتاين تشكل انحرافا جذريا عن الواقع، فإنها غالبا ما تتضمن المعنى والقيمة الجمالية معا.

المكتبة البيبليوغر افية:

- لوي دي جانيتي، فهم السينما، تر: جعفر علي.
- هنري آجيل، علم جمال السينما، تر: ابراهيم العريس.
- دادلي أندو، نظريات الفيلم الكبرى، تر: جرجس فؤاد الرشيدي.